بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ:01/02/2008 **الشيخ الطبيب محمد خير الشعال**

((سلسة قوانين القرآن))

في ((سنن الله في البلاء))

الحمد لله، الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهدي الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد إن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله خير نبي اجتباه وهدى ورحمة للعالمين أرسله ،أرسله ربنا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون ولو كره المشركون ولو كره من كره ،اللهم صل على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد:

فيا عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، والله لا نجاة في الآخرة إلا بالتقوى، والله لا فوز بالدنيا إلا بالتقوى.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) ﴾[يوسف]

ثم أستفتح بالذي هو خير، يقول الله تعالى في محكم التنزيل:

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) ﴾[آل عمران]

وقال ربنا: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (43)﴾[فاطر]

نحن في الخطبة السادسة من **سلسلة السنن الإلهية في القرآن أو قوانين القرآن...**

في القرآن قرارات في القرآن نواميس في القرآن قوانين، في القرآن سنن لا تتخلف ولا تتبدل، ولا تحابي ولا تماري، إذا استطعنا أن نقرأ قوانين القرآن وأن نعمل وفق معطياتها سعدنا في الدنيا والآخرة ، لهذا كانت هذه السلسلة....

تحدثنا لماذا هذه السلسلة،وتكلمنا عن السنن الإلهية في التغيير، وعن السنن الإلهية في النصر ،وعن السنن الإلهية في الذنوب والسيئات، وعن السنن الإلهية في الإيمان والعمل الصالح....

وعنوان خطبة اليوم: **السنن الإلهية في الإبتلاء...**

أيها الإخوة أتدرون كيف ينقى الذهب من شوائبه!!؟

إن تعريض فلذات الذهب للنار ينقيه من شوائبه، وكلما ارتفعت الحرارة أكثر كلما وصلنا إلى ذهب خالص أنقى، هذه الحرارة العالية التي يتعرض لها الذهب اسمها فتنة، اسمها ابتلاء، اسمها تمحيص وامتحان....

أتدرون كيف يتشكل الألماس!!؟

الألماس: هو فحم تعرض لضغط جوي كبير يساوي خمسة ملايين ضغط جوي وحرارة عالية تساوي ألف درجة مئوية أو أكثر حولت الفحم إلى ألماس، وبدون هذا الضغط وهذه الحرارة لا يصير الكربون ألماساً، هذا الضغط الكبير، وهذه الحرارة العالية تسمى فتنة وتسمى ابتلاء وتسمى امتحان وتسمى تمحيص....

الابتلاء والفتنة والتمحيص والامتحان كلمات قرآنية وأصل الابتلاء الاختبار....

تقول: بلوت الرجل وابتليته إذا اختبرته، وابتلاه الله يعني امتحنه، والاسم البلوى والبلاء...

والبلاء هو الاختبار، ويكون الاختبار بالخير ويكون الاختبار بالشر...

وإني وجدت السنن الإلهية في الابتلاء في القرآن الكريم أربعة:

السنة الأولى: الابتلاء سنة جارية في الناس عامة وفي المؤمنين خاصة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2) ﴾[الانسان]

وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) ﴾[الملك] ليختبركم أيكم أحسن عملاً...

وقال: ﴿الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) ﴾[العنكبوت] لا يختبرون ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3) ﴾ [العنكبوت]

وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ٠٠ والله سوف نختبركم.. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31) ﴾[محمد]

وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) ﴾[البقرة] فسنة الله الجارية في عباده عامة وفي المؤمنين خاصة الابتلاء والاختبار....

وهذه السنة يتبعها عقلاء الأرض وحكماؤها في معاملاتهم الأرضية، فأنت لا ترقي موظفاً عندك حتى تختبره وتمحصه، وأنت لا تثق بإنسان فتقربه منك حتى تمتحنه وتبتليه....

والجامعات والمعاهد والمدارس في كل الدنيا لا تمنح رتبها العملية وإجازاتها المهنية إلا بعد تعريض طلابها للامتحان، وكلما علت الشهادة صعب الامتحان أكثر، وكلما غلت المهنة عسر الاختبار أكثر....

ولما أراد الله تعالى من المؤمن أن يعلو وأن يسمو كانت سنة الله الماضية في الناس عامة وفي المؤمنين خاصة الابتلاء والاختبار....

ولهذا الابتلاء والاختبار حكم عديدة وفوائد جسيمة عدَّ منها العلماء:

1. تصفية الصفوف..
2. الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة...
3. تمييز الخبيث من الطيب...
4. رفع المنزلة والدرجة عند الله...
5. تكفير السيئات...
6. معرفة عز الربوبية وذل العبودية...
7. الإنابة إلى الله...
8. رحمة أهل البلاء....
9. معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها...
10. ثواب الآخرة...

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ-يعني تعب- **وَلَا وَصَبٍ** -يعني مرض- **وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ))** [البخاري]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((يؤتى بالشهيد يوم القيامة فينصب للحساب ثم يؤتى بالمتصدق فينصب للحساب ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينصب لهم ديوان فيصب عليهم الأجر صبا حتى إن أهل العافية ليتمنون أن أجسادهم قرضت بالمقاريض من حسن ثواب الله لهم)) [الطبراني].

الابتلاء سنة جارية للناس عامة وللمؤمنين خاصة وهذه هي السنة الأولى...

السنة الثانية في الابتلاء: أن الابتلاء مرتبط في التمكين في الأرض ارتباطا وثيقاً:

لن يمكن الله لأمة حتى يختبرها، لن يمكن الله لجماعة حتى يبتليها...

جرت سنة الله تعالى أن لا يمكن لفرد أو لجماعة أو لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث المختلفة ليميز الله الخبيث من الطيب، وليمحص الله الإيمان وأهله، وليختبر الله المؤمنين ، وليعلم الصابرين، ثم يكون لهؤلاء، للذين صبروا في الامتحان يكون لهم التمكين في الأرض....

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ○○ (24) ﴾[السجدة] امتحناهم فصبروا فجعلناهم أئمة في هذه الأرض....

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24) ﴾[السجدة] لم يشكوا أبدا بدين الله ولا بآياته...

أما أولئك الذين لم يصبروا أو الذين غيروا عقيدتهم أو الذين بدلوا واستسلموا نتيجة صعوبة الاختبارات فليس لهم أن يكونوا أئمة في الأرض يقتدى بهم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (214) ﴾[البقرة]

يا أيها الإخوة: إن ما يجري اليوم في فلسطين، إن هذا السحق للمسلمين، إن هذا القتل العشوائي للمسلمين.. إن ما يجري في العراق..إن ما يحدث في دار فور..إن ما يدور في الصومال...هذه الوقائع التي تقع في أراضي المسلمين هي الابتلاءات والاختبارات التي تسبق التمكين في الأرض لهم.

ولكن ينبغي على كل مسلم فينا أن يصبر وأن يتق الله تعالى في بيته ونفسه وعمله...

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) ﴾[يوسف]

لكن ينبغي على كل أخ وأخت فينا أن يصبر وأن يكون موقناً بكلام الله تعالى.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24) ﴾[السجدة]

لكن ينبغي على كل مسلم فينا أن يصبر وأن يتمسك بالقرآن الكريم وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن نطبق الشريعة في بيوتنا وفي معاملنا وفي عياداتنا وفي شركاتنا ،حتى يكون لنا التمكين في الأرض وعندها ﴿ooألَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (214) ﴾[البقرة]

لأنه لابد أن **بعد كل محنة منحة، وبعد كل بلية عطية، وبعد كل شدة شدة، وبعد كل ترح فرح.** ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) ﴾[الشرح]

السنة الثانية: الابتلاء مرتبط بالتمكين في الأرض ارتباطا وثيقاً...

السنة الثالثة في الابتلاء: الابتلاء يكون في السراء تارة وبالضراء تارة أخرى...

الله يبتلي العباد بالمضار ليصبروا ويبتليهم بالمسار ليشكروا....

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35) ﴾ [الأنبياء]

أنت تختبر بالغنى حيناً وبالفقر حيناً آخر، ماذا ستفعل في غناك وماذا ستفعل في فقرك!!!؟

يبتلى المؤمنين بصحته حيناً، وبمرضه حيناً آخر، ماذا يفعل في المرض وماذا يفعل في الصحة!!؟

يبتلى المؤمن بالعز حيناً وبغيره حيناً آخر ماذا سيفعل!!؟

تاجر دمشقي كان في صحة وعافية وأسرة ومال وجاه ،كان متمسكاً بالحياة متعلقا بها، لكنه كان بعيداً عن الله تعالى، وبعيداً عن الانضباط بشرعه، له صديق كان يدعوه إلى الإيمان مراراً فلا يفعل...

حدث أن أصيب هذا التاجر بأزمة قلبية شديدة أسلمته للفراش ثم دعت الأطباء إلى دعوته إلى عملية جراحية في القلب، وأخبره الأطباء أن نسبة نجاحها ثمانين بالمائة لا تخف..فسألهم أين العشرين بالمائة الباقين!!؟ متمسك هو بالحياة...قالوا: هذه بيد الله ، قال: ألا تستطيعون جلبها منه!!؟ قالوا: يا رجل ثق بربك...

اتصل بصديقه التاجر الذي كان يدعوه مراراً للإيمان وأخبره الخبر، ثم قال له: أنت محافظ على طاعتك لربك ألا تستطيع أن يعطينا العشرين بالمائة!!؟ هو يحسب أنها تجارة!!! أرجوك!!

قال صاحبه: وافقت، اليوم أزورك مساءاً وأقف أنا وأنت بين يدي الله تعالى، عادتك أنك لا تصلي لكن اليوم ابدأ بالصلاة....

قال له: اليوم سنصلي أنا وأنت وسنسجد بين يدي الله تعالى وسنسأله ذلك على أن تعاهدني أن تنضبط بالشرع وبأوامر الله تعالى...

قال التاجر: موافق، المهم أن أتعافى...

يقول لي هذا الأخر الملتزم: زرته وصلينا وسجدت وسجد في الصلاة..دعا وبكى وأبكاني معه وأنهينا الصلاة وعاهد الله على أن ينضبط بشرعه ويلتزم بأوامره، ودخل العملية ونجحت العملية نجاحا كبيرا فخرج سالماً....

زرته وذكرته بوعوده التي التزمها لكنني فوجئت بأنه نكث وغير وقال: يا أخي ما دمت الآن تعافيت فلا داعي لما قطعته على نفسي في المرض...هذا التاجر نجح في المرض لكنه رسب في السراء عندما تعافى...

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (21) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23)﴾[يونس]

هذا الرجل التاجر نجح في امتحان الضراء لكنه رسب في امتحان السراء....

الآن بالعكس:

تاجر منعم موسر مرتاح مالياً وأسرياً كانت علاقاته التجارية صحيحة وذمه المالية نقية ، وكان منضبطا بالشرع في يسره...حدث أن أصيب بإفلاس بسبب مشروع كبير دخله ولم ينل منه ما ظن ، وعند إصابته بهذه النكبة راح يبحث في أوراقه القديمة هل يوجد طريقة لعقود بيع عقارات قديمة قام بها أن ينقل بها الآن..أو أن يطالب الشارين القدماء بمبالغ تعويضية.. وهكذا فعل...

هذا التاجر نجح في السراء لكنه رسب في الضراء....

والابتلاء يكون بالسراء حيناً وبالضراء حيناً آخر، والمؤمن على الحالتين منضبط بأوامر الله...

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)) [مسلم]

فأنت يا أيها المؤمن مبتلى بالسراء كما أنك مبتلى بالضراء...

الغنى اختبار، الجاه اختبار، المنصب اختبار، القوة اختبار، الشباب اختبار...

وعكسها: الفقر والقلة والحاجة والضعف والعجز والشيخوخة أيضاً اختبار...

وقد قالوا القيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، حقوق الصبر صعبة لكنها أيسر من القيام بحقوق الشكر....

وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه –وعمر وما أدراك ما عمر–:

بلينا بالضراء فصبرنا، وبلينا بالسراء فلم نصبر...

السنة الثالثة: الابتلاء يكون بالسراء حينا وبالضراء حينا آخر...

السنة الرابعة والأخيرة من السنن الإلهية في الابتلاء: أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً قَالَ: ((الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ...

أصحاب الأعمال الصالحة والإيمان الكبير كلما زاد إيمانهم وأعمالهم الصالحة كلما زاد البلاء عليهم حتى يتحولوا إلى ذهب خالص وإلى ألماس نقي...

فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)) [الترمذي]

يا أيها الإخوة هذه هي السنن الإلهية في الابتلاء:

1- **الابتلاء سنة جارية في الناس عامة وفي المؤمنين خاصة.**
2- **الابتلاء مرتبط بالتمكين ارتباطا وثيقا.**
3- **الارتباط يكون بالسراء تارة وبالضراء تارة أخرى.**
4- **أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.**

ختاما لا يطلبن أحدكم البلاء، ولكن قولوا:

اللهم إنا نسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إنا نعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن....

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم فيا فوز المستغفرين ، أستغفر الله.